(8) عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

كذلك هو أحد العبادلة، وأحد المكثرين رواية للحديث، وأحد رواة القرآن الكريم، وقد أوصى رسول الله ﷺ بأخذ القرآن عنه حينما قال: «**من أحب أن يقرأ القرآن غضاً كما نزل فليقرأه على قراءه ابن أم عَبْد**».

أسلم مبكراً، وهاجر الهجرتين إلى الحبشة قبل الهجرة إلى المدينة المنورة، وقبل كل ذلك الهجرة إلى الله تعالى من ظلمات الجاهلية إلى نور الإيمان.

ابن أم عَبْد، لو رأيت جسده النحيل لاستغربت، ولو رأيت دقه ساقيه لضحكت ولو رأيت شجاعته لتعجبت؛ لأنها لا تتناسب مع وصف جسده، ولكن لو علمت مدى صدق إيمانه واخلاصه لله تعالى لأتاك الخبر اليقين، ولزال عنك أسباب تعجبك، خاصة بعد أن تعلم أنه أول من جهر بالقرآن الكريم بمكة المكرمة.

هيا معًا نتعرف على ابن أم عبد أبى عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

***

طرق الإسلام باب قلبه مبكراً، وكان سادس ستة أسلموا واتبعوا النور الذى جاء به محمد بن عبد الله ﷺ، ولإسلامه قصة جديرة بالرواية والذكر.

بينما كان يرعى غنمًا لسيد من سادات قريش يسمى عقبة بن أبى معيط إذ جاءه رجلان يبدو عليهما التعب والإرهاق، وقد جفَّا حلقاهما من شدة العطش، فقالا له: يا غلام هل عندك من لبن تسقينا. قال: إنى مؤتمن، ولست بصاحب الغنم، ولست ساقيكما. فابتسما الرجلان لقوله. وقال أولهما: هل عندك من جذعة لم ينز عليها الفحل[1]. فقال: نعم، ثم ذهب وأحضر الشاة فأمسكها الرجل، ومسح ضرعها، ثم أخذ يحرك شفتيه بكلمات مباركات، وما هى إلا لحظات حتى امتلأ الضرع باللبن، فأتاه الرجل الآخر بحجر مجوف فملأه بالحليب بعد أن نظفه. شرب الرجلان، ثم شرب ابن مسعود رضي الله عنه، ثم قال الرجل الأول للضرع: اقلص[2]. فعاد الضرع كما كان وعبد الله فى ذهول وعجب، ثم قال للرجل الأول: علمنى من هذا القول. فأجابه: إنك غلام مُعَلَّم.

---

(1) لم ينز عليها الفحل: أى شاة صغيرة بكر.

(2) اقلص: انقبض.

وانصرف الرجلان اللذين لم يكونا سوى رسول الله ﷺ الرجل الأول، وصاحبه الصديق أبا بكر رضي الله عنه الرجل الثانى، ولم تكن الكلمات المباركات إلا دعاء الله تعالى. . أسلم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بعد أن رأى هذه المعجزة، وأدرك أن هذا الرجل إنما جاء بدين الحق، وأن القوم مخطئون فى تكذيبه.

أسلم عبد الله رضي الله عنه وانضم إلى قافلة الأوائل، وقد أخبر هو عن نفسه أنه سادس ستة ما على ظهر الأرض مسلم غيرهم.

ولما أسلم أخذه رسول الله ﷺ إليه فكان يخدمه، ويتعلم منه، ويأخذ القرآن الكريم حتى أصبح مدرسة تنقل القرآن قراءة وعملاً، منهجًا وتطبيقًا، وتنقل السنة قولاً وعملاً، نصًا وسلوكًا، وقد حاز شرف الأخذ عن رسول الله ﷺ مشافهة، حتى أنه قال عن نفسه «**أخذت من فم الرسول ﷺ سبعين سورة لا ينازعنى فيها أحد**».

وكان يدخل بيت النبى ﷺ كأنه أحد أفراده، حتى ظن أبا موسى الأشعرى رضي الله عنه حين قدم من اليمن مهاجرًا أنه رجلٍ من أهل بيت النبى ﷺ.

وكان يُعرف بين الصحابة بصاحب السواد[1] والسواك، فقد كان يرافق الرسول ﷺ فى حله وترحاله، يلبسه نعليه، ويوقظه إذا نام، ويمشى معه وأمامه أينما سار، ويستره إذا اغتسل، ويحمل له سواكه وعصاه، مما أتاح له أن يراقب النبى ﷺ فى كل شؤنه وأحواله ويتأسى به، ويكون كما وصفه حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما «**أقرب الناس هديا وسَمْتًا[2] برسول الله ﷺ**».

***

حينما اشتد إيذاء قريش للمسلمين هاجر بعضهم إلى الحبشة مرة ومرة كما أوصاهم رسول الله ﷺ، وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من الذين هاجروا الهجرتين إلى الحبشة، إذ لم تكن له من عشيرة تحميه، ولا منعة تمنعه، ومع كل هذا كان يمتلك قلبًا شجاعًا، جعله يتحدى طغيان أهل الشرك فى مكة المكرمة، ويسمعهم ما يكرهون، ويكون أول من يجهر بالقرآن الكريم من الصحابة الكرام، وذلك أنه

---

(1) السواد: السر.
(2) سَمْتًا: هيئةً.

اجتمع ذات يوم أصحاب رسول الله ﷺ، فقال بعضهم لبعض: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر لها به قط. فهل من رجل يسمعهم؟. قال ابن مسعود رضي الله عنه: أنا. فقالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة تمنعه منهم إذا أرادوه بسوء. فقال: دعونى فإن الله سيمنعنى. وفى ضحى الغد وقف ابن مسعود رضي الله عنه قريبًا من مجلس قريش، وجلس ورفع صوته تاليًا: «بسم الله الرحمن الرحيم»: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ. . . .﴾ [أول سورة الرحمن].

فسمعوه، فقال بعضهم: ما يقول ابن أم عبد؟ فأجاب الآخرون: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد. ثم قاموا إليه جميعًا وأخذوا يضربونه فى وجهه وجميع جسده ليكف عن مواصلة القراءة، ولكنه أخذ يقرأ ويقرأ حتى بلغ من التلاوة ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه ودماؤه تنزف ووجهه متورم من شدة الضرب. فقالوا له: هذا الذى خشينا عليك! فأجابهم: ما كان أعداء الله قط أهون علىّ منهم الآن، ولئن شئتم فعلتها معهم غدًا. فنهروه قائلين: حسبك. قد أسمعتهم ما يكرهون. وليس لنا من تعليق سوى القول بأنه الإيمان الثابت والعقيدة التى لا تتزعزع العقيدة التى تملأ القلوب شجاعة، وتهون أمامها كل الصعاب.

إن المشركين رأوا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رجلاً ضعيفًا، لا عشيرة له تدافع عنه ولا يمتلك قوة بدنية يدفع بها عن نفسه شر ما يلاقى. أما هو فقد رأى فى نفسه قوة مستمدة من قوة إيمانه بالله القوى العزيز، تلك القوة التى جعلته يجهز على عدو الله أبى جهل وذلك الطاغية الذى طالما آذى المسلمين بقوله وفعله عندما التقى الجمعان، يوم الفرقان، يوم بدر الكبرى.

***

بعد انتهاء معركة بدر الكبرى بانتصار ساحق للمسلمين أمر الرسول ﷺ بالتماس أبى جهل فى القتلى، فذهب ابن مسعود يبحث عنه، فوجده وبه رمق فوضع رجله على عنقه، وقال له: هل أخزاك الله يا عدو الله. فقال أبو جهل: أخبرنى لمن الدائرة اليوم؟ فأجابه: لله ورسوله. ثم أخذ عبد الله رضي الله عنه سيفه وقطع به رأس أبى جهل، وذهب بها إلى رسول الله ﷺ، وقال له: يا رسول الله، هذا رأس عدو الله أبى جهل. فحمد رسول الله ﷺ ربه تعالى.

وبعد بدر شهد عبد الله بن مسعود المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وبعد وفاة رسول الله ﷺ ظل يقاتل فى سبيل الله تعالى بالكلمة والسيف حتى أنه شهد معركة اليرموك بين المسلمين والروم بعد انتقال الرسول ﷺ إلى جوار ربه.

* * *

أتاحت ملازمة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لرسول الله ﷺ الأخذ عنه، والتلقى منه سواء القرآن الكريم، أو السنة النبوية، ولذلك فهو من أكثر رواة الأحاديث النبوية. ويروى التاريخ الصادق أن رسول الله ﷺ قال له يومًا: «**إقرأ علىّ القرآن**» وقال: يا رسول الله، اقرأ عليك وعليك أُنزل. فأجابه ﷺ: «**إنى أشتهى أن اسمعه من غيرى**». فقرأ ابن مسعود رضي الله عنه سورة النساء حتى وصل إلى قول الله تعالى: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾ [النساء: 41] فسمع صوت رسول الله ﷺ يقول: «**أمسك** ـ أى حسبك **ما قرأت** ـ» فنظر ابن مسعود رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فإذا عيناه تذرفان بالدموع. وهذا الموقف يدل على تمكن ابن مسعود من القرآن الكريم، وكان ذلك شهادة عملية من رسول الله ﷺ لابن مسعود رضي الله عنه باجادته لكتاب ربه تعالى، وذلك غير شهادته القولية، فقد دخل ﷺ المسجد ذات يوم، فوجد عبد الله يصلى ويتغنى بكتاب الله تعالى، فسُر رسول الله ﷺ منه، ثم قال: «**من سره أن يقرأ القرآن غضًا طريًا فليقرأه على قراءة ابن أم عبد**».

وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه كان موسوعة قرآنية ناطقة، فاهمًا لمعانيه، متمكنًا من قراءاته، عالمًا بأحكامه، وأسباب نزوله. فقد أخبر عن نفسه قائلاً: «**لقد علم أصحاب محمد ﷺ أنى أعلمهم بكتاب الله، وما أنا بخيرهم، ولو أنى أعلم أن أحدًا أعلم بكتاب الله منى تبلغينه الإبل لأتيته**».

وهكذا يكون حب العلم وطلبه، وهكذا يكون تواضع العلماء الذى نراه فى قوله «**وما أنا بخيرهم**».

* * *

ولعبد الله بن مسعود رضي الله عنه منزلة عالية عند الله تعالى، ومكانة عظيمة فى قلب رسول الله ﷺ وصحابته، يدل على ذلك أن رسول الله ﷺ طلب منه يومًا أن يصعد شجرة ليأتيه منها بشئ، فنظر الصحابة إلى دقة ساقيه حين صعد الشجرة،

فضحكوا. فقال لهم الرسول الكريم ﷺ: «**ما تضحكون!! لَرِجْل عبد الله أثقل فى الميزان يوم القيامة من جبل أحد**».

ولشدة تقواه وورعه وثباته على الحق أوصى الرسول ﷺ قائلاً: «**تمسكوا بعهد ابن أم عبد**».

ولما لا وهو الذى يسمع فيطيع، ويعمل فيخلص، وينصر السنة، ويحارب البدعة، ويحرص على أداء شعائر الإسلام كما أراد الله تعالى ورسوله ﷺ. فمن ضمن أقواله الصحيحة المشهورة عن أهمية الصلاة ومنزلتها، وأهمية صلاة الجماعة وتأكيدها «**من سره أن يلقى الله غداً مسلماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن، فإن الله تعالى شرع لنبيكم ﷺ سنن الهدى، وانهن من سنن الهدى، ولو صليتم فى بيوتكم كما يصلى هذا المتخلف فى بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور ـ الوضوء ـ ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة، ويرفعه بها درجة، ويحط عنه بها سيئة، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتى بها يُهَادي بين الرجلين[1] حتى يقام فى الصف**».

ونفهم من هذا القول العظيم أن الحفاظ على شعائر الدين، والتمسك بسنة رسول الله ﷺ كان الشغل الشاغل، والهم الكبير لابن مسعود رضي الله عنه، وذلك لأنه رجل تربى فى مدرسة محمد ﷺ، وتخرج منها عالمًا بطلاً مغواراً عارفًا بالله محبًا له، بازلاً ما بوسعه لنشر الحق فى ربوع الدنيا بالحكمة والموعظة الحسنة، ولذلك فقد قال رجل فى مجلس على بن أبى طالب رضي الله عنه «ما رأينا رجلاً أحسن خُلقًا، ولا أرفق تعليمًا، ولا أحسن مجالسة، ولا أشد ورعًا من ابن مسعود» فقال على بن أبى طالب رضي الله عنه: أنشدكم الله[2]، أهو الصدق من قلوبكم؟. قالوا: نعم. فقال: «**اللهم اشهد أنى أقول مثل ما قالوا، وأفضل من قرأ القرآن، وأحل حلاله، وحرم حرامه، فقيه فى الدين، عالم بالسنة**».

يا لها من شهادة حقة، وكلمة صادقة خرجت من قلب رجل مشهود له بالجنة فى حق هذا الصحابى الجليل، ابن أم عبد رضي الله عنه.

---

(1) يُهَادى بين الرجلين: يعتمد عليهما لضعفه.

(2) أنشدكم الله: استحلفكم بالله.

وتمضى الأيام، وفى عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه كان ابن مسعود رضي الله عنه أميراً على الكوفة، فلقد أرسله إلى أهلها معلمًا الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع عمار بن ياسر رضى الله عنهما الأمير، وكتب إليهم يقول: «**إنى قد بعثت عمار بن ياسر أميرا وعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ، من أهل بدر، فاقتدوا بهما، واسمعوا قولهما، وقد آثرتكم بعبد الله بن مسعود على نفسى**».

أرسل إليه عثمان بن عفان رضي الله عنه يستدعيه إلى المدينة، وبعد أن وصلها بأيام مرض، ونام طريح الفراش، فذهب إليه عثمان بن عفان رضي الله عنه يعوده، فدار بينهما الحوار التالى الرائع الذى يدل على زهد ابن مسعود رضي الله عنه فى الدنيا، ومدى خوفه من الله تعالى، ورغبته فيما عنده سبحانه.

عثمان رضي الله عنه: ما تشتكى؟

ابن مسعود رضي الله عنه: ذنوبى.

عثمان رضي الله عنه: فما تشتهى؟

ابن مسعود رضي الله عنه: رحمة ربى.

عثمان رضي الله عنه: ألا آمر لك بطبيب؟

ابن مسعود رضي الله عنه: الطبيب أمرضنى.

عثمان رضي الله عنه: ألا آمر لك بعطائك الذى امتنعت عن أخذه منذ سنين؟

ابن مسعود رضي الله عنه: لا حاجة لىٰ فيه.

ويخرج ذو النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو يدعو لابن مسعود رضي الله عنه بالشفاء والرحمة.

وبعد أيام قليلة لبى ابن مسعود رضي الله عنه نداء ربه تعالى، ومات فى السنة الثانية والثلاثين بعد الهجرة، وكان عمره وقتها أكثر من ستين عامًا، قضاها بين الجهاد والكفاح، والتعلم والتعليم، والأخذ عن رسول الله ﷺ ثم تبليغه للناس ودراسة القرآن الكريم ثم تدريسه.

مضى رجل لم تغره الدنيا يومًا ما، أو تأخذه بين أحضانها وزخارفها.

مضى رجل من صحابة رسول الله ﷺ ليتلقاه على الحوض مع اخوانه السابقين الأولين، والمجاهدين المكافحين، والعلماء الناشرين، رضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

• **من فضائل عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه:

(1) عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من أحب أن يقرأ القرآن غضًا كما أُنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد**» رواه ابن ماجه وأحمد وحسنه الألبانى.

(2) عن على بن أبى طالب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَرِجْل عبد الله أثقل فى الميزان يوم القيامة من جبل أحد**». رواه البخارى فى الأدب المفرد، والامام أحمد وصححه الألبانى.

(3) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «والذى لا إله غيره ما من كتاب الله سورة إلا أنا أعلم حيث نزلت، وما من آية إلا أنا أعلم فيما انزلت، ولو أعلم أحدًا هو أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل لركبت إليه» رواه الشيخان.

***